مصر بين حضارتين

بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة المحامى

لا بد لكل إنسان من الأخذ بنصيب من الدين والعلم والمال والتنازل عن نصيب من حقوقه وحريته والتضحية بكثير من عواطفه ومبادئه وآرائه ليتمكن من العيش فى المجتمع البشرى فى حالته الحاضرة .

وقد كان المؤمل المرجو أن يزداد نصيبه من الفريق الأول ويقل عنه عبؤه من النصيب الثانى ، ولكن استقراء التاريخ دلنا على أن الأمر على النقيض فى الناحيتين . ويرجع سبب هذا الخلاف بين ما كان مأمولا ومرجواً وبين الذى وقع فعلا فى قدر كبير الى أحكام الطبيعة الكونية أولا ، وإلى طبيعة التكوين الإنسانى ثانيا .

أما الدين فهو مؤسس على الغيب والمستور وعلى مجرد الثقة فيما يؤكده أفراد ممتازون من الجنس البشرى . وقد قامت شبهات وأشباه أدلة على الشك عند معظم الناس ولا سيما الجهلاء والمعاندون وذوو الطبائع المتناقضة ، فانهار الركن الأكبر للأديان الواحد تلو الآخر فى ضمائر المتدينين وغفلت الكثرة عن حقيقة راهنة وإن كانت خفية ، وهى أن الدين لا يكون إلا لأفراد قليلين محدودى العدد متسعى الإدراك فى كل الأمم وكل العصور وتكاد مواهبهم تكون متجهة نحو البحث فيما وراء الطبيعة . فالأسباب التى تدعوهم إلى التدين لاصقة بعقولهم لا بمنافعهم .

وقد أثبتت الأيام فى العصور المتوالية منذ أقدم الدهور أن الإنسان بالغا ما بلغ من صفاء النفس وحسن الطوية ، لا يستطيع أن يحيد عن الشر إذا دعته اليه دواعيه إلا بوازع من الدين سواء أكان على دين سماوى أم كان من عبدة الأوهام أو الأصنام ، لأن العقيدة الدينية تقوم فى النفس مقام الشرطى الحارس الذى يمنع ما حرمته الشريعة التى تتعلق بها تلك العقيدة والشرائع كلها خير وما الشر الذى ينشأ عنها إلا من التحريف والتأويل .

أما والأديان خير محض ، وإن كانت وثنية ، فان الأديان السماوية جاءت لسعادة الناس لكنها لا تجىء بالسعادة إلا إذا كانت خالصة لوجه الله ، وهى لا تكون خالصة لوجه الله إذا ضعفت العقيدة بما يشوبها من المؤثرات الدنيوية التى تصرف المؤمن عن العبادة أو تجعل العبادة مقترنة بالمشاغل التى تحول القلوب عما يتطلبه الإيمان من التجرد من الأغراض والشهوات .

وأما العلم فلم يهتد الدرس بعد، إلى الطرائق المثلى في تلقينه ونشره وحسن الانتفاع به ولم تجمع الأمم في قارة واحدة ولا الجماعات في أمة واحدة على طريقة مفردة بل انتحى كل فريق منهم منحى يخالف منحى جيرانه . فمنها ما قام على الاستظهار، ومنها ما قام على العقل وتقوية الذكاء قيام الأولين على تقوية الذاكرة، واختص منها جنس بمرانة الأجسام وتضخيم الأبدان وجنس بالانكباب على الدرس وهكذا إلى أن أصبحت عقول الصغار والفتيان ملاحق معامل تجريبية وصار العبء كله على كاهل أولياء الأمور في الطور الأول، ثم على كاهل الطلاب أنفسهم يتبعون ميولهم ومواهبهم ويكافأون بقدر ما أتقنوا .

أما المال فهو المشكلة الكبرى ولا سيما في العصور الأخيرة ، فإنه في أثناء انهيار الأديان تفتحت أذهان البشرية إلى المبادئ المادية التي سبقها التكالب على الشهوات والتطرف في الاحتياز واستقواء غريزة الملكية ، وتراخت أواصر الأخلاق وانحلت روابط المعاني والأرواح بقدر ما استجمت علائق المظاهر والأشباح .

وكانت نزوحت القبائل الرحالة والهمج والجياع من رءوس الجبال والوديان المجدبة إلى سهول الخصيبة وضفاف الأنهار أول خطوة في تحويل التيارات الإنسانية من القناعة والسلم والعمل الهادئ إلى الدفاع ثم الهجوم والتطاحن والاستهانة بإهراق الدماء ؛ وما زالت المظالم تنمو والنصفة تذوى وتتضاءل حتى أصبح الحق للقوة والحيلة ، وامتدت هذه الأمراض الخلقية حتى صارت الكلمة العليا للأشرار والخبثاء والمتربصين للهجوم والإيقاع .

وبعد أن كان المتهجمون يخشون عواقب النقد والتأنيب أصبح المدافعون هم الخشاة الحذرون . ولكنهم شعروا بحاجتهم إلى تعميق خطة أخرى تدعم القوة المادية وتسندها وتسترها فاستشرى الكذب وأطل النفاق برءوس ثلاث : نفاق اجتماعي ، وآخر سياسي ، وثالث اقتصادي ، وهو ما كان في أول الأمر مقصورا على النفاق الديني " التقية " وغاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل ، وصار أصحاب المكائد في مقدمة الفائزين في معركة أمضى أسلحتها الكذب والاستهتار والأنانية والتحلل من كل قيد واشتد " الشح " صورة حديثة ومدلولا جديدا وهو التوسل بكل حيلة للحصول على أعظم كمية من المال الثابت والمنقول ، وبعد ذلك لا يسأل المالك من أين ملك ! ويصبح قوة من قوى الدولة له سائر حقوق العصب بالقانون وليس عليه واجب محدود ، ثم توجهت نية الملاك إلى التخلص من أعباء العقار كرها لارتباطهم بالأرض وحبهم في التنقل ومحو الحدود التي تحد من رغبتهم في اختيار الإقامة في تروقهم ما داموا يعيشون بدون أدنى مجهود ، وكانت هذه الرغبة دليلا على انقسام الأمم إلى فريقين ، فريق يكد ويكدح ويواصل العمل في الليل والنهار رجاء أن يحوز القوت الضروري وهو الكثرة الطاحنة ، وفريق يلهو ويلعب ويصيد

ويغزو ويستمتع ويمرح وينثر المال وينفقه فيما لم يعمل له وهو القلة المطلقة ، وبعبارة أخرى تجدد الرق برذائله وزالت نعمه التى كانت قرينة له فى العصور الأولى ومحيت آية تحرير العبيد ، نسختها آية استعباد الأحرار .

وصار التناسل فى الطبقات الفقيرة وسيلة لمضاعفة عدد الأرقاء وتحكمت حاجة الرجل والمرأة إلى إكفاء مطالب الجسد فى مقدراتهما وهما يعلمان أنهما إنما يلدان ليزدادا ذلا وليوردا سجل الشقاء ذكورا وإناثا كان أنفع لهم وأجدى ألا يولدوا فإنه بنسبة ارتقاء حاجات العصر وتصاعد النفقات واضطرار الفقراء لنزف دمائهم فى سبيل ضرورات أسالمهم ، كان انحطاط تقديرهم فى أعين سادتهم الذين يلدون سادة لمواليد الفقراء الذين يرثون الشقاء عن والديهم .

ثم تولدت الصناعات الرفيعة وهى حليفة الضرم فى الشعوب فافتن الصناع فى ابتكار الكماليات التى تخلق العادات الخاصة والعامة ، واخترعت أدوات لمحق الزمان والمكان حتى وصف العصر بأنه " عصر السرعة " وامتهنت المعنويات والروحيات فى سبيل رفاهية الابدان واعتلت المرأة من جديد عروش الجمال والفتنة فتحكمت واحتكم اليها الرجال وسودوها فسودت صحائفهم وعبثت بالتاريخ ووضعت مغرفة الشهوات فى "قدور" السياسة والمال وصارت لها الكلمة العليا ولأهوائها القول الفصل ولشهواتها المكبوتة والطليقة الأمر المطاع .

وفى اثناء ذلك انفصمت عرا الأخلاق وطغت الغرائز على النفوس وأفلتت حبال الاعتصام من أيدى القابضين على زمامها وامتد التنكك إلى نظم الدولة واهتزت دعائم السلطة وصار أحق الناس بالمحافظة على السلطة أكثرهم تهاونا فيها واستهانة بها وضعف حرصهم عليها ولما كانت القدوة والتقليد سواء أكانا فى الحسنى أم فى السوءى من أقوى دوافع الانسان لاتخاذ الخطط وترسم الطرق ، اتخذت التيارات سبل الشر فلما صار الحارس لصا والمؤتمن خوانا والصديق كاذبا والجدير بالاحسان مسيئا سرت الرذائل فى الطباع سريان النار فى الحطب والخمر فى أوصال الثمل ، حتى صار الاتباع يسبقون المتبوعين . وأمسى المقلدون أحرص من المقلَّدين على نهج مناهجهم واقتفاء آثارهم والمشى على سننهم . وما يزال فريق من البسطاء ومحسنى الظن بالفطرة البشرية يؤملون صلاحية الأمور ويمنون انفسهم بتقويم اعوجاج الانسانية ويحلمون بالعناية الربانية الكفيلة بتحقيق أمانيهم وهم يعلمون أن المرجو صلاحهم قد خالفوا كل الشرائط وحادوا عن سنن الخير والعدل والحق كافة وأن تدخل العناية الالهية لايكون ولايتحقق إلا اذا توافرت عناصر معينة منصوص عليها وقد تضاءلت تلك العناصر على مدى الأجيال حتى تلاشت .

وكان من أظهر البظائع اندثار العدل وضياع الحقوق وتضخم نكران الجميل حتى كاد يكون معتقدا عند المحسن والمحسن اليه فتولدت الاحقاد واستفحلت الاضغان بين الافراد والجماعات والطبقات والأمم حتى اصبحت تتفاضل وتتباهى وتتيه على من عداها . فكان يقال أمة الرومان سيدة الأمم في الغرب ، وأمة الفرس كبراها في الشرق ، وافتخر العرب على سواهم وكذلك وصف المصريون الأقدمون كل الاجانب بأنهم برابرة . والحقيقة أن الاغريق واليونان والعرب والمصريين والرومان لم تحتفظ باصولها ولم تبق على شيء مما كانت عليه بل طرأت عليها حوادث ألبستها في نظر الرقباء لمدققين ثيابا غير ثيابها كالفتوح والغزو وتقلبات العقائد وتطورات الحضارة وغيرها من الحوادث الجسام التي تتخلل أعمار الجنس البشري فإن الفرنسيس لاتين ، أي رومان بلغتهم ، وأغريق بالمدنية ، ويهود في الدين ، والمصريون حاميون جنسا وساميون لغة ، ومسلمون دينا . وهكذا قل عن كل الأمم حتى الحديثة العهد منها كالمستوطنة قارة أمريكا . فلم يصبح لامتياز الشعب بالارومة والأصل والنسب (مع أهميته الكبيرة في الوقوف على منشئه) ما كان له من الشأن قديما وصارت الحوادث الكبرى الطارئة في المقام الأول من الاعتبار . ومن تلك الحوادث حضارة اليونان وفتوح الرومان وغزوات الجرمان وظهور الإسلام والنصرانية وإحياء العلوم وعصور الفلسفة والثورة الفرنسية واكتشاف أمريكا والاختراعات الكبرى والشيوعية فإن هذه الحوادث الكبرى مرت ومازالت تمر على العالم وعلى الجنس البشري كأدوات الطحن والطرس نحو ذلك الامتياز الجنسي وترغم الأسر البشرية على الامتزاج والتجانس لتجعلها أمة واحدة .

* * *

لقد نجحت الانسانية في إيجاد حلول لخصومات الفردية وإن لم يكن العدل القضائي الذي تجريه المحاكم هو العدل المطلق بل هو مجموعة أحكام نسبية تضع حدا لكل نزاع . ويزعم الذي يزعم أنه مظلوم على قبوله ويبقى دائما أحد الخصمين غاضبا ما لم يتم صلح بينه وبين خصمه يتنازل فيه كل قرين عن بعض حقوقه باختياره ولكن هذا يعد حلا على كل حال .

وعندما عرضت ضرورة تطبيق هذه القاعدة على المجموعات كالأمم والطبقات والهيئات المنظمة فشلت كل الوسائل في الوصول إلى النهاية . وكان آخر مثال للفشل الصارخ عصبة الأمم التي عزمت على تسوية الأمور الدولية بالتحكيم وهو الطريقة القطرية للأفراد من قديم الزمان . وتعزى هزيمتها بحق لعدم القوة القاهرة التي تلزم كل فريق بقبول ما يقضى به . وهذا الإلزام هو الأداة الوحيدة التي أفادت في فض نزاعات الأفراد وكذلك الحروب الأهلية بين الأحزاب السياسية لا تحل إلا بالسلاح . وكذلك خصومات الطبقات كالعمال وأرباب رءوس الأموال وكذلك شكاة الفقراء لا يفصل فيها الفصل الأخير إلا الثورات الدموية وانتزاع السلطان من أيدي المتحكمين ، وبالجملة لم يعد للعقل ولا الأخلاق ولا الحكمة ولا النخوة الانسانية أثر فعال في كبح جماح الطبيعة البشرية المتهيجة . فتكون كل الجهود التي بذلت في التمدين والتهذيب والترويض قد ذهبت أدراج الرياح .

وقد علوا هـذه النزعات العدائية بتيار المـادية الجارف الذى طغى على العالم ووجد خونة وخبثاء ومنافقين من الذين لبسوا ثوب العلم والفلسفة ينشئون له مبادئ ترشحه وتدعمه وتعززه وتزكيه، مع أن الواجب يقضى بفحصه والتقليل من اندفاعه و إقامة السدود للحيلولة بينه و بين إيذاء الانسانية، وهاهم يعودون القهقرى و يكذبون خطأهم بل جرمهم و يندمون عليه ولكن بعـد فوات الأوان ، فقد تهكموا على كل المقدسات وشككوا فى كل الأسس الثابتة وسهلوا للجهـال والمرائين محق الفضائل والروحيات ومحقها وكذبوا كل ما كان يمكن اتخاذه دعامة للفضل والحق والجمال ولعبوا بمقدرات الانسانية لعب الفيل الغشوم الأعمى بالأزهار الرقيقة فى براعمها .

إن أصحاب الشرائع وحكماء العالم لم يكونوا جاهلين ولا بلهاء عند ما بغضوا الشرور إلى الناس ووعدوهم بخلود الروح وتوعدوهم بألوان العذاب فى الدنيا والاخرة ترهيبا وتخويفا ، إنما فعلوا هذا وذلك ليحدوا من طبيعة الشر فى الإنسان و يقللوا من عنجهيته وخيلائه و يقللوا من عبثه وعنته واعتـدائه لأنه بفطرته فى غير حاجة إلى التحريض على الشر أو معونته على فتح أبواب الشر على مصراعيه فهو حيوان فى أصـله وتكوينه ونشأته وليس حيوانا وادعا ولا هادئا ولا قنوعا بل حيوان من الضوارى والكواسر والجوارح، وهذا هو الأصل فيه والطارئ عليه هو إرغامه على التزام الهدوء والسكون والاعتـدال والحد من شراسته وكسر شوكته و إلجامه بالحديد لا تسليحه بالحديد والنار، و إطاعه فى كل ما ليس له و إغرائه بكل ما يؤدى إلى هلاكه .

لقـد تكلموا عن التطور إلى الخير و إلى العلا و إلى الرقى الذى لا حد له ولكن الأدلة قامت على نقيض ما ذهبوا اليه الا فى أمر واحد وهو تطوره حسبما تقتضيه حياته المادية فلو أن الانسان لم يهيئ نفسه للتطور وفق الملابسات والظروف التى يعيش فيهـا لانقرض الجنس الانسانى من قديم فكان لا بد له أن يعد نفسه للتمشى ولكل ألوان التغير والتبدل التى تحدث حوله ، و إلا ما استطاع أن يبقى نوعا قائما بذاته وليست هـذه الحاجة التى تصحبها القدرة سوى ما يلجأ اليه الحيوان للملاءمة الوسط، وهاهو الانسان المفكر والعالم المثقف والكاتب النحرير والخطيب المفوه والمصلح قد وصلوا الى مرحلة من أشق مراحل التفكير والتدبير ، أيرضون أن يصبحوا أرقاء كعبيد فى الشرق والغرب يفعلون ما يؤمرون به و يمتنعون عما ينهون عنه، وليس سادتهم سوى اللصوص الذين يستغلونهم ويذلونهم باسم المجتمع والصالح العام وسير المدنية ، وما هى إلا أسمـاء أسموها لتسهل على هؤلاء السادة واللصوص الوصوليين التمكن من استعباد الكثرة الغالبة ؟ أم أن هؤلاء المفكرين سيتبوأون مكانتهم المحتومة خداما للانسانية واساتذة للمدنية أحرارا مكرمين لا يشاركون فى نصب الحبائل التى أعدها النفعيون ؟ . . . لن تستقيم الأمور فى هـذا الكوكب الذى نعيش على قشرته

إلا إذا أصبح لكل انسان نصيب عادل من ثمرات هذه الأرض يشعره بأنه مساهم فى خيراته ولا تستقيم الحياة وتقل وطأة المظالم إلا إذا ضمن للكافة مستوى منصف فى التعليم والتغذية والصحة والكسب الحلال، ولو أن الجهود التى تبذل أيام السلم فى استنزاف دماء الشعوب للإنتاج الزائد عن حدوده، وفى الحرب فى التقتيل والتجريح والتخريب — لو أن هذه الجهود أو بعضها بذلت فى التفكير والعمل لأمكن استغلال قوى الطبيعة كالبحار والأنهار ومنابع المياه والجبال وضوء الشمس وسائر القوى الطبيعية الكامنة والظاهرة وحبسها وتنظيمها لينتفع بها كل كائن ولو اقتضى الأمر رجوع الناس الى العصر الفطرى وهو الركود فى أحضان الطبيعة لضمان العمل والرزق بالزراعة الكثيفة والصناعات الضرورية والتوسع فى إنارة الأذهان، فإنه لا يصد تيار المادة الا الاستعانة بالزهادة الرفيقة والتقشف النبيل لكبح جماح الشهوات والمطامع . أما الاندفاع فيما بدأه العالم منذ مائة وخمسين عاما سواء أكان فى السياسة أو الاقتصاد فهلاك محقق وقضاء على الجنس كله بالتخريب والتدمير وحرمان الكثرة من حقوق تستأثر بها القلة ، ولابد كذلك من الرجوع ولو فى هوادة الى المعتقدات الدينية والارتكان الى مبادئها السامية .

إن الحرب الطاحنة التى يكتوى العالم بنارها للمرة الثانية خلال النصف الأول من هذا القرن إن هى إلا حكم نهائى بإفلاس المدنية وعجزها عن مداواة البشر ومعالجة أمراضهم ونقائصهم ، وعلة العلل فى مدنية الغرب أنها تهالكت على المادة وأسرفت فى عبادتها حتى سادت بين الأمم الغربية مبادئ الجشع والأنانية والظلم . وكان احساس مفكرى الغرب وفلاسفته بنقائص مدنيتهم هذه واضحا منذ نهاية القرن الماضى وتلمسهم أسباب علاجها هو الذى أوحى إليهم استنباط مبادئ وفلسفات اجتماعية جديدة أملوا أن يكون فيها برء عالمهم من المرض وخلاصه من سلطان المادة ومن هنا نبتت الاشتراكية والشيوعية والفاشيستية والاشتراكية الوطنية تحاول كل منها أن تهيئ للناس الرخاء والراحة والسلام . وراحت هذه المبادئ تنازع الديمقراطية سلطانها القديم ولكن العلاج لم يثمر ولم يجنب المدنية الغربية مصيرها المحتوم إذ راحت المبادئ الجديدة تتضارب فى قسوة وعنف تارة مع بعضها وطورا مع الأنظمة القديمة .

فعلة العلل ليست هى الأنظمة ولا وسائل الحكم ولا هى المبادئ الاجتماعية الجديدة بل هى غريزة الشر الكامنة فى الإنسان .

إن خلاص العالم فى رأيى لن يكون إلا إذا خلصت الروح وانطلقت المبادئ السامية على حساب الغرائز الشريرة وراحت الأمم تهذب النفوس وترعى الفضائل التى ابتدعتها الأديان فالعودة إلى الدين وتقديس تعاليمه والعمل بروحه هو علاج العالم من أمراضه . ولست أقصد بالعودة إلى الدين أن نعود إلى التعصب الدينى أو أن نرجع إلى سلطان رجال الدين كما يوشر فى القرون الماضية ، وإنما الذى أرمى إليه روح الدين من حيث المساواة وتقديس الفضائل ما

محمد لطفى جمعه